الفصل التاسع

دور التربية فى مواجهة مشكلات الثقافة المصرية

تعتبر ثقافة أى مجتمع من المجتمعات حصيلة تجاربه المختلفة على مر العصور والأزمان ، وهى كما يصطلح العلماء الاجتماعيون تتكون من عناصر عديدة منها اللغة والفكر والقيم والعادات والتقاليد ، والآلات والأدوات والفنون المختلفة التى يستخدمها المجتمع فى إشباع حاجاته ومطالبه المختلفة . كما تتضمن الأساليب المختلفة التى يستخدمها المجتمع فى تناوله لتلك الآلات والأدوات ، وجميع الوسائل المادية فى حياته .

ولما كانت عناصر الثقافة فى بدايتها ، وتطورها ، وما وصلت إليه تعتبر أولا وأخيراً مبتدعات ومخترعات وحلول لمشكلات صادفت كل مجتمع وهو يواجه مطالب بقائه واستمراره فإن هذه الثقافة تتأثر بعديد من العوامل والظروف التى يمر بها كل مجتمع من هذه المجتمعات . ومجتمعنا ككل المجتمعات قد مر بعدة ظروف بيئية وطبيعية معينة ، ومر بظروف سياسية واقتصادية واجتماعية معينة أيضا شكلت حياته ومطالبه ومشكلاته ، وبالتالى ثقافته وصبغتها .

بعض العوامل المؤثرة فى الثقافة المصرية :

فالعوامل البيئية لها تأثيرها القوى فى تشكيل الثقافة المصرية فلقد كان لسطحها سهولا وصحارى ونهراً ووادياً ، وكان لمناخها المعتدل وكان لشمسها الساطعة ، ولسمائها الصافية ؛ كان لكل هذا أثره فى ابتداع عناصر ثقافية مثل الزراعة والصناعة والأهرامات وفصول السنة وتنظيم اجتماعى إدارى للزراعة والسلطة ، وما إلى ذلك مما يذكره التاريخ والواقع المصرى على مر العصور .

وكان لموقعها الوسيط بين قارات العالم أن صارت مصر بوتقة لصهر الثقافات المختلفة ، وتمثل عناصرها ، وخلق مزيج جديد منها تستفيد منه فى تشكيل ثقافتها هى . كما كانت فى

كثير من العصور مركز إشعاع ثقافى وحضارى على كثير من مجتمعات العالم .

كما كان موقعها هذا سبباً فى جذب الأنظار إليها ، واختلفت صورة هذا الجذب والانجذاب على مر العصور ، فمرة يأخذ شكل هجرات إليها ، ومرة يأخذ شكل فتح وضم ، مرة يأخذ شكل غزو ثقافى ، ومرةأخرى يأخذ شكل غزو سياسى اقتصادى ثقافى .

وتمثلت هذه المؤثرات العديدة فى غزوات عبر العصور نذكر منها غزوات الهكسوس والفرس والرومان واليونان والفرنسيين والإنجليز كما كانت هناك مؤثرات ثقافية متبادلة وتمثلت هذه المؤثرات فى صورة بعثات علمية منها إلى البلاد المتقدمة ، وصورة بعثات علمية إليها . كما حدثت فى العصر الحديث ابتداء من عصر محمد على حتى وقتنا الحاضر . فهناك عديد من البعثات التى أتيحت لها فرصة السفر إلى أوربا فى العصر الحديث . فتعلم هؤلاء المبعوثون فى جامعات أوربا ، وعاصروا وعاشوا فى إطار ثقافات غربية فاستوعبوا وتمثلوا . وهضموا بعض عناصر الثقافات الأوربية ، وبالذات تلك العناصر الفكرية التى قرءوها فى الكتب وتمثلوها فكراً نظريا خالصاً فى كثير من الحالات . وجاءوا إلىمجتمعهم - مصر- وهم حاملون لعناصر من تلك الثقافة يبشرون بها ، وينشرونها فى مجتمعهم .

وقام كثير من هؤلاء المصريين العائدين من البعثات بترجمة كثير من الكتب العلمية والأدبية وتأثرت ثقافتنا بالأفكار الواردة فى هذه الكتب إلى حد بعيد على الأقل من الناحية النظرية .

وقام كثير من المثقفين العرب الهاربين من الاضطهاد فى ممالك عربية أو إسلامية إلى مصر بترجمة كتب وأفكار الغرب ، وفى كثير من الحالات ترجموا ثقافتهم ، لكى تكون زاداً لثقافتنا ، من ذلك ما فعله الأفغانى حينما جاء إلى مصر لينشر العناصر الثقافية الإسلامية التى استوعبتها ثقافته ، ومن ذلك أيضا أهل الشام الذين فروا فى بداية العصر الحديث من الاضطهاد التركى إلى مصر وأسسوا كثيراً من الصحف والجرائد التى أسهمت فى شرح الثقافة الغربية بمذاهبها وفلسفاتها وآدابها المختلفة .

ولقد كانت هذه التيارات المتصارعة سببا أساسيا فى الصراع الثقافى الذى منيت به مصر فى تلك الفترة والفترات اللاحقة ، فالاتجاه الدينى الذى تبناه بعض رجال الدين من أمثال خريجى الأزهر والشيخ جمال الدين الأفغانى ، يقابله تلك الاتجاهات التى ظهرت فى صحف تلك الفترة ، ومنها المقتطف بوجه خاص التى كانت « دائبة على التعريف

بالمذاهب الغربية فى الفلسفة والأدب وسائر ضروب الثقافة ، ولا تكاد تشير إلى شىء من قديم الشرق . وتراثه الفكرى . كما كانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام أو الشرق أو مصر فى تاريخها الحافل الطويل . كما كانت تعمل بطريقة مستترة على إفساد الدين وإضعافه فى نفوس المصريين وإضعاف الوطنية لديهم[1] » .

كما تعرضت الثقافة المصرية أيضا لمؤثرات أخرى غربية استهدفت إحلال عناصر غربية محل العناصر الأصلية لثقافة المجتمع . ويمثل ذلك تلك الهيئات التى تبنت إنشاء المدارس الأجنبية فى مصر ، وإنشاء الكنائس فى مصر تتخفى تحت ستار نشر الدين . وفى واقع الأمر كانت ضد الدين فى هذا البلد . حتى الدين المسيحى نفسه الذى يعتنقه بعض أهل هذه البلاد قد تعرض على أيديهم لمثل هذا الهدم تحت عنفوان المذهبية الصارمة . فكانوا يحاولون تحويل أبناء الأقباط المصريين من المذهب الأرثوذكسى إلى المذهب الكاثوليكى أو البروتستانتى . وكان من نتيجة هذا التيار وجود صراع ثقافى بين أبناء المجتمع تمثل فيما خرجته هذه المدارس الأجنبية ، وما أحدثته هذه الإرساليات فى بعض فئات المجتمع من أنماط ثقافية مغايرة لثقافة المجتمع . وأصبح مألوفاً لدينا أن نشاهد كثيراً ممن تخرجوا من المدارس الأجنبية يحتقرون كثيراً من أساليب حياتنا وأنماط تفكيرنا .

وأخذ الصراع الثقافى فى مصر فى العصر الحديث صورة أخرى من صور الصراع التراجيدى الحاد بين أولئك الذين حملوا كثيراً من عناصر الثقافات الوافدة وأولئك المحافظين على ثقافة وطنهم . الفريق الأول لم يكن ماجنا كلية وإنما كان فى الواقع صنفان ، صنف سطحى أخذ من الثقافة الغربية قشورها ، وأخذ يضج أسماعنا بطنين مزعج لبعض المذاهب والأفكار الإلحادية والمادية . وصنف آخر أخذها مأخذاً جديا ، أخذ منها الجوهر دون الشكل . وتمثل الصنف الثانى فى العلماء ، والمفكرين والقادة المحدثين والمجددين . أما الفريق الثانى هو الآخر فلم يكن على حق كلية أيضا ، وإنما كان هو الآخر صنفين : صنف تمسك بلب الثقافة والتراث الثقافى الإسلامى عن وعى وبصيرة . . أخذ منه الجوهر دون القشور . فالتقى فى فكره ووعيه مع الصنف الثانى من الفريق الأول . وصنف آخر تمسك

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب ، ص ٢٤٣ ، يرجع إلى التربية ومشكلات المجتمع ، محمد الهادى عفيفى وآخرون ص ١٧٣ .

بالقديم تمسكا مفعما بكل معانى التخلف ، والجمود والفهم الخاطئ . فتصارع بدوره بغباء مع الصنف الأول من الفريق الأول . واحتدم الصراع الثقافى بينهما ، وكلاهما متجاوز للصواب مخالف له .

وأخذت بعض هذه التيارات ، وخاصة التيار المحافظ تتوسل بالدين المسيحى أو الإسلامى . وأخذ بعضها الآخر يتوسل بالتحضر ، والتمدن ، ومسايرة العصر وإن كان على حساب القيم . فوجدنا نوعا من الاضطراب القيمى والصراع الفكرى .

صحيح أنه قد تأثرت ثقافتنا بالدين المسيحى ، وبجوهره . وبأفكاره . ولكن أنماطا من التعصب قد دستها ، وبثتها بعض الإرساليات ، وبعض العناصر الاستعمارية وتبناها بعض رجال هذا الدين بما جعل هناك فجوة ثقافية بين أبناء المجتمع الواحد وإن كانت مستترة إلى حد ما .

وصحيح أنه قد تأثرت ثقافتنا بالدين الإسلامى ، فشكل وصبغ معظم عناصرها ، ولكن أنماطا من التعصب أيضا وسوء الفهم ، والجمود قد سيطر على بعض رجال الدين المتصدرين للدعوة فى عصور كثيرة . فحينما كانت تقوم دعوة لفهم الدين على أساس عقلانى ذكى كان بعض هؤلاء يتصدرون لمثل هذه الدعوة ويتهمون رجالها بالكفر وبالزندقة . وفى نطاق هذا الصراع اتهم محمد عبده إمام التجديد الإسلامى الحديث بذلك فى البداية من أكثر رجال الدين الإسلامى إصراراً عليه وفى نفس الوقت كانوا غير قادرين على فهم أبعاد الحركة التجديدية الواعية التى حملها هذا المفكر الإسلامى الحديث .

مع دخول الدين الإسلامى مصر دخلت اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم . فلقد انتشرت هذه اللغة مع دخول المجتمع المصرى فى الإسلام زرافات ووحدانا . حتى أصبحت هى اللغة بالنسبة لجميع الناس خاصة فى العصر الأموى بعد أن عرّبت الدواوين . وكان من الطبيعى أن تنتشر مختلف عناصر الثقافة الإسلامية مع انتشار اللغة وسيادتها ، لأن اللغة هى التعبير الصريح عن مكونات ثقافة ما من الثقافات . وساعد على صهر المجتمع المصرى فى الثقافة الإسلامية هجرة كثير من القبائل والعائلات العربية إلى مصر بعد الفتح الإسلامى ، وتزاوجهم مع المصريين ، وإن كان ذلك الانصهار قد استغرق وقتا يقدره المؤرخون بخمسمائة سنة .

كما لعب قادة المسلمين ، وفقهاؤهم ، ودور عبادتهم ، كما تمثلت فى المساجد والجوامع

ودور التعليم كما تمثلت فى الكتاتيب التى انتشرت فى كل أرجاء المجتمع دوراً كبيراً فى نشر الثقافة الإسلامية وعناصرها الفكرية والعملية . وكان القرآن الكريم هو محور هذه الثقافة المعبر عنها شكلا ومضموناً .

وجهة نظر تحليلية للثقافة المصرية الراهنة :

على أننا إذا ما أردنا تحليلا لثقافتنا المصرية اليوم على ضوء العوامل السابقة فإننا نلاحظ أن بها عناصر كثيرة متداخلة تنتمى إلى ثقافات متعددة . ففيها عناصر ثقافية فرعونية[1] مازالت تشكل بعض عاداتنا وسلوكنا فى بعض الأمور .

ونجدها فى مجملها تحتوى على معظم عناصر الثقافة الإسلامية . ونجدها أيضاً تحتوى على عناصر ثقافية غربية ؛ منها ما هو إيجابى يتمشى مع جوهر ثقافتنا مثل قيم الديمقراطية والعلم ، ومنها ما هو سلبى ويعشش فى ثقافتنا مثل القيم المظهرية .

ولذلك فليس من الغريب أن نجد اتجاهات متناقضة متصارعة تجوب أبعاد الثقافة المصرية ، والشخصية المصرية . ليس من الغريب أن نجد أولا : اتجاها يمثل جانبا عقلانيا فى هذه الثقافة . وهى صفة إيجابية من إيجابيات أى ثقافة ناضجة . ولكنه لا يتسيد على هذه الثقافة المصرية وإلا عشنا الحضارة العصرية بكل مغزى ومعنى وجوهر . وإنما يتسيد قطاعا واحداً من قطاعات هذا المجتمع على المجال النظرى فى معظمه ؛ وهو قطاع العلم والعلماء والتعليم والمفكرين . ولقد بدأت صيحة هذا الاتجاه تعلو فى تلك الثقافة على يد الشيخ محمد عبده ، وغيره من المفكرين . وهو اتجاه يؤكد سيادة العقل فى فهم الأمور وفقا لمنطقه الواضح النزيه دون الانسياق لسلطة ما مهما كانت ، لا تعطى لهذا العقل حقه وحريته فى التفكير والإبداع . فما يتعارض مع هذا العقل فهو مرفوض ، وحتى فى النصوص الدينية ما يتعارض من معانيها مع العقل وجب أن يوجد له تفسير جديد . وهذه هى إحدى القواعد الفقهية فى الإسلام التى تدل على عقلانيته ، والذى يرى بعض الفقهاء خطأ أنه يعتمد على النقل دون العقل .

أما الاتجاه الثانى فى الثقافة المصرية الذى يحتدم حوله وبسببه الصراع الثقافى فهو

---

(١) نذكر منها على سبيل المثال الخميس الأول والخميس الثانى والأربعين للموتى والسبوع للمولود .

الاتجاه الدينى . وهو عدة اتجاهات فى داخله : اتجاه تعصبى ، واتجاه رجعى متحجر ، واتجاه عقلانى ، واتجاه شكلى .

الاتجاه التعصبى : وهو اتجاه يمزق أوصال المجتمع والوحدة الوطنية والتماسك القومى العام لأنه يجعل هناك تكتلات تتقوقع على نفسها على حساب التماسك الاجتماعى العام ووحدة المجتمع الداخلية كلها . كما أنه اتجاه يفهم الدين – أى دين – فهما خاطئا لأنه لم ينزل دين سماوى يدعو لمثل هذا التعصب ، وإنما دعت هذه الأديان السماوية إلى السلام ، والتسامح والمحبة . وهو يعمل ضد الدين ، بشكل ما لأنه يجلب عداء الفئات الأخرى كرد فعل لمثل هذا الاتجاه .

الاتجاه الرجعى المنغلق والمتحجر : وظهر هذا عند بعض رجال الدين حينما فهموا الدين فهما خاطئا ، وأغلقوا باب الاجتهاد العقلى ، واعتمدوا على النص بفهم خاطئ دون العقل .

الاتجاه العقلانى : وهو اتجاه يدعو باستمرار إلى تنقية الدين من كل الشوائب العالقة به ، والتى دخلت عليه بسبب الطمس العقلى . وهو فى هذه التنقية يدعو إلى استخدام الذكاء الإنسانى فى الفهم والشرح والاجتهاد .

الاتجاه الشكلى : وهو اتجاه أخذ من الدين شكله وترك مضمونه وجوهره ، وحرص على بعض الطقوس الدينية دون فهم كاف ، واستيعاب كامل لمغزاه ومضامينه .

وإذا كان قد ظهر على المستوى الدينى مثل هذه التيارات ، والاتجاهات المتعارضة . فإن هناك تيارات أخرى أخذت تتصارع مع بعضها منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين لكى تشكل الثقافة المصرية الحديثة وتلونها بلونها ومنها .

تيار غربى : وهذا التيار قد بدأت جذوره منذ تولى محمد على حكم مصر محاولا أن يحدد ثقافتها بإدخال أنماط الثقافة الغربية فيها تاركا الثقافة الموجودة فى ذلك الوقت تعيش بجوارها . فعاشت مصر ثقافة مزدوجة فى كل شىء ؛ فى الفكر ، وفى الحرب ، وفى السياسة ، وفى الدين ، وفى التعليم . ثم وضحت صورة هذا الاتجاه فى عهد إسماعيل حينما أطلق شعار « جعل مصر قطعة من أوربا » . وإن ظل هذا الشعار يعبر عنه الشكل دون الجوهر . ثم علت موجة هذه الاتجاه فى عهد الاحتلال البريطانى حينما حمل لواءه مجموعة من الكتاب يجرؤون على الكتابة بصراحة بأن مصر عليها أن تدير ظهرها لكل فكر سلفى ورد

إليها من التراث « الإسلامى » وأن تنظر إلى الأمام . . إلى أوربا ماذا فعلت وكيف تحضرت وما عليها إلا أن تقتفى الأثر .

وتوسل هذا الاتجاه فى تلك الفترة بشرح الداروينية على اعتبار أن فى نشرها ، بالصورة التى فهمت بها خطأ فى ذلك الوقت يمهد للإلحاد ، وأن الطبيعة هى مصدر هذا الكون . ومن ثم فليس هناك من داع للإيمان بالله خالقا لهذا الكون . ومن ثم أيضا يرفض التراث كله وندير ظهرنا بالتالى إلى كل ماض جاءت إلينا به الديانات السماوية . وإن كان لابد من أن يكون لنا ماض نعتز به فهو مصر القديمة . . مصر الفرعونية .

وهذا الاتجاه فى حد ذاته قد غذى اتجاهات عديدة منها ، الاتجاه الفرعونى ، والاتجاه العلمى ، والاتجاه العلمانى . وفى نفس الوقت كان سببا فى رد فعل قوى ظهر فى الاتجاه الإسلامى وتجديده . ومحاولة إبراز معظم التيار الإسلامى .

ولقد حاول التيار الإسلامى إبراز معظم الاتجاهات التى ظهرت فى التيار الغربى فى نطاقه من ديمقراطية وعلمية ، كما غذى الاتجاه الإسلامى اتجاهين ظهرا فى بعض الأحيان أنهما متعارضان ، وفى البعض الآخر أنهما متفقان : هما الاتجاه القومى متمثلا فى القومية العربية ، والاتجاه لجامعة إسلامية .

وفهم الاتجاه الأخير تارة بأنه التوحد الإسلامى فى نطاق الخلافة الإسلامية متمثلة فى الدولة العلية . وتارة أخرى بأنه الجامعة الإسلامية متمثلة فى كل دول العالم الإسلامى .

ومعنى سيادة اتجاه من الاتجاهات هو سيادة لعناصر الثقافة التى يمثلها هذا الاتجاه من قيم ومثل عليا وفكر وعادات وتقاليد ، وما يرتبط بهذه جميعا من عناصر مادية .

وما نلاحظه من دراستنا وتحليلنا للثقافة المصرية المعاصرة أن اتجاها من الاتجاهات لم يتسيدها . وإنما هى تحوى عناصر كثيرة من اتجاهات عديدة مما يجعلها مسرحا للمتناقضات الفكرية والاجتماعية ، ومرتعا للصراعات القيمية الاجتماعية والشخصية .

فحينما نبشنا فى التراث الإسلامى أخذنا منه بعض عناصره دون الأخرى . وحينما حاولنا تمثل الاتجاه الغربى أخذنا منه بعض عناصره دون الأخرى .

وهذا الاتجاه الأخير قد أخرج نفسه للعالم فى صور متعددة منها الماركسية والرأسمالية ، والاشتراكية الوطنية . وحينما أخذنا من كل هذه الفلسفات ، أخذنا من الجانب النظرى وأخذنا من الجانب العلمى ، وأخذنا نخيط ثوبا فيه من كل بستان ورقة شجر ذابلة .

فتهلهلت حتى الآن فلسفتنا على مستوى النظر والتطبيق .

وخلاصة ما سبق أن الثقافة المصرية ثقافة عريقة قامت على ما اخترعه الذكاء المصرى من حلول لكثير مما صادفه من مشكلات ، كما قامت على ما اقتبسه هذا الذكاء من الثقافات الأخرى لحل مشكلاتها . بعضها تمثلته وهضمته ، وأصبح من مكوناتها . وبعضها تناقض معها . وبعضها طردته الثقافة المصرية وعزلته ، وبعضها احتفظت به بين طيات الشخصية المصرية يظهر فى التناقضات والصراعات المختلفة أمام مواقف الحياة المختلفة .

فإذا ما رأى البعض أن ثقافتنا يظهر بها بعض الاتجاهات الثقافية مثل العقلانية والعلمية ، والدعوة إلى التحرير ، والوسطية ، والاتجاه الدينى ، واللفظية مما يتسبب فى التناقض والصراع الفكرى[1] فإن ذلك لا يجانب الصواب . وإليك بعض تفسيرات هذه الاتجاهات وكيف أدت إلى هذا التناقض والصراع الذى يجوب أعماق الثقافة المصرية ويظهر فى سلوك أبناء المجتمع المصرى :

العقلانية : وهى منحى لاستخدام الذكاء الإنسانى فى فهم قضايا البشر وحسمها استنادا إلى أن منطق العقل البشرى قادر على فهم الأمور وتفسيرها تفسيراً صادقا . وهذا الاتجاه يحترم العقل الإنسانى إلى درجة لا تعلوها منزلة حتى فى تفسيره للنصوص القرآنية ؛ شريطة تنقية هذا العقل من الجهل والتعصب وتنقية النفس من الأحقاد والكره . لأن ذلك من شأنه أن يطمس العقول فلا تعى ولا تفهم .

وهذا الاتجاه يرفض الإذعان لسلطة أخرى مهما كانت إلا سلطة العقل . فإذا تعارض فهم النص الدينى مثلا مع العقل وجب أن يبحث له العقل عن معنى آخر يقره ولا يتناقض معه . وثقافتنا الإسلامية نفسها تستند إلى مثل هذا الاتجاه فى تفسيرها لمصادر الدين الإسلامى .

أما الاتجاه الثانى وهو العلمية : فيقصد به أننا قوم قد آمنا بالتجريب فى فترات الرقى الحضارى ، نذكر منها أيام الفراعنة ، وأيام الحضارة الإسلامية ، وفى العصر الحديث تنبهنا بسرعة فائقة إلى أسباب الحضارة الغربية العلمية بمجرد رؤيانا لما تحمله الحملة الفرنسية معها من عناصر هذه الحضارة فتتجه بسرعة إلى هذا الاتجاه ونظل نغذيه ، برغم العقبات . حتى

(١) التربية ومشكلات المجتمع ، محمد الهادى عفيفى وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ .

وصلنا إلى استقرار مثل هذا الاتجاه فى ثقافتنا الحاضرة . وحسبنا أن نرى هذا الاهتمام الضخم من الدولة والمجتمع بالعلم وبالتخصص العلمى . فوثيقتنا المعاصرة ملأى بالاهتمام بهذا الاتجاه العلمى وبناء التنمية على أساسه فى صورة تخطيط علمى يضم الحياة الاقتصادية والاجتماعية كلها . وكتبنا وجامعاتنا ومعاهدنا ووسائل إعلامنا تؤكد أهمية هذا الاتجاه فى حياتنا وحياة الشعوب . فضلا عن أن الواقع التعليمى يبرز هو الآخر محاولات نحو تدعيم مثل هذه الاتجاهات . وإن كان هناك تقصير ما فى هذا الاتجاه فلا يصدر عن جهل بأهمية هذا الاتجاه ؛ وإنما تتسبب فيه أسباب أخرى كثيرة منها عدم المقدرة المالية بسبب الحروب الكثيرة التى نخوضها .

وإن كان هناك ثمة دليل على هذا الاتجاه ومقدرتنا على استيعابه ، ففى جامعاتنا وكلياتنا العلميةوالعملية ، وفى مراكز بحوثنا ، وفى قدرتنا على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة فى وقت قياسى ، واستخدامها فى حرب رمضان بهذا القدر الكبير من النجاح لدليل على إمكانيات هذا الشعب من هذا الاتجاه .

أما الدعوة إلى التحرير : فقد تمثل هذا الاتجاه فى ثقافتنا فى مناهضة المستعمر على مر العصور ، وبخاصة فى العصر الحديث . فقد ناهضنا الأتراك والفرنسيين والإنجليز والقوى الصهيونية والإمبريالية ، كما تمثل أيضا فى النداءات والدعوات الكثيرة لتجديد الدين الإسلامى فى العصر الحديث . وفى تحرير المرأة . فى تغيير حياتنا الاجتماعية والاقتصادية وتحرير المواطن المصرى من كل ما علق به من رواسب الماضى : تحريره من الرق الاجتماعى ، والرق الاقتصادى ، والرق السياسى ، والرق الفكرى . أى تحريره من تبعيته للآخرين واعتماده عليهم فى كرامته وفى قوته ، وفى إدارة شئون بلده ، وفى اعتماده على نفسه واستقلاله الذاتى وقدرته على التفكير لنفسه بنفسه .

أما الوسطية فلا يقصد بها الحلول الوسطى أو أنصاف الحلول وإنما يقصد بها الحيادية . وهى منطلق موضوعى للتفكير الإنسانى يتبنى الحياد الفكرى فى دراسته لتجارب الأمم والشعوب ، ولثقافاتهم ، حتى يمكنه أن يقتبس منها ما يمكن له أن يتمثله ويهضمه اقتباساً له حوافزه وأسبابه ومدارسه . ويظهر هذا الاتجاه فى الاتجاهات التكاملية التى اتسمت بها ثقافتنا المعاصرة فى كثير من الأمور حينما أيدت نظرة متكاملة للطبيعة البشرية ، ونظرة متكاملة بين الفرد والمجتمع فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ونظرة متكاملة بين

الحياة الدنيا والحياة الآخرة « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ونظرة متكاملة بين الفكر والعمل . ومن يرد أن يستزيد فى هذا المجال يجد فى تراثنا ، وفى ثقافتنا المعاصرة أمثلة عديدة لمثل هذا التكامل فى مواثيقنا ، وفى مقرراتنا السياسية والاجتماعية ، وفى مؤلفاتنا العلمية .

أما الاتجاه الدينى فقد سبق لنا أن ناقشناه وعرضنا لاتجاهاته . وما نود أن نشير إليه هنا هو أن الدين قد لعب ، ويلعب دورا هاما فى حياتنا منذ أقدم العصور . وكان المحرك لنا فى كثير من شئوننا . وكان وراء اختراع وابتداع كثير من فنوننا وعلومنا وتفسيرنا لأنفسنا وللطبيعة من حولنا ولما وراء الطبيعة من حولها .

ونظرة سريعة إلى أعماق التاريخ المصرى القديم أيام الفراعنة . ثم العهود التى تلته ، ثم العصور الوسطى ، والعصور الحديثة تذكرنا بتمكن هذا الاتجاه من ثقافتنا وتأثيره عليها . فكثير من الاختراعات التى توصلنا إليها والحروب التى خضناها والثورات التى أشعلناها لمناهضة الاستعمار والاندفاع إلى العمل والإنتاج كان ذلك كله يقف وراءه الدين حافزا ودافعا .

ولقد استهدف هذا الاتجاه لغزوات استعمارية ضارية . ومع ذلك صمد وبقى قويا يقاوم كل معتد آثم .

كما كان هذا الاتجاه ولا يزال حاميا لكل مقوماتنا الثقافية الأصلية من الانهيار والضياع ، وقادراً على خلق الرجال القادرين على قيادة التقدم ، ومناهضة السلبيات الثقافية العديدة .

هذا وإن كانت هذه الثقافة مليئة بمثل ما ذكرناه من إيجابيات فإنها أيضا يثقل كاهلها كثير من السلبيات نذكر منها :

اللفظية والصراع الثقافى والتناقض الفكرى والواقعى .

فاللفظية اتجاه سلبى فى حياتنا يمزق كيانها لأنه يستهلك الوقت ، وهو أثمن ما فى الوجود . وهو بذلك يبدد حياة الأمة وحياة شعبها ويبدد طاقتها . وحينما يستشرى هذا الاتجاه فى أمة من الأمم مهما كان هذا الاتجاه موصلا لفكر نظرى براق إلا أنه لا يبنى حضارة ولا يطور ثقافة .

فاليونان القدماء قد توصلوا إلى فكر وفلسفة . ومع ذلك لم يبنوا حضارة يذكرها لهم

التاريخ لأنهم اعتمدوا على الجانب النظرى واللفظى دون الجانب العملى فى حياتهم ، أما قدماء المصريين مثلا فقد تركوا حضارة لأنهم مزجوا بين الفكر والعمل . وهكذا كان الحال أيام الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى .

أما عندما غابت عن ثقافتنا هذه الاتجاهات العملية فى أيام الترك وأيام الاحتلال البريطانى تخلفت ثقافتنا . وأصبحت ثقافتنا شعارات وكلمات ليس لها فى الواقع تجسيد ، حتى أصبح من المألوف أن تعقد اللجان والمؤتمرات وتصدر توصيات وقرارات لا تعدو أن تصبح مجرد شعارات لفظية براقة . ونصيب التنفيذ فيها قليل .

ومثل هذا الاتجاه من شأنه أن يبدد الجوانب والاتجاهات الإيجابية فى الثقافة ، ويقلل من فعاليتها فلا تصبح الاتجاهات العلمية والتحررية واقعية . ونجد كثيراً من مواقف وحوادث العبث بها وصفعها فى مواقعها الحقيقية . نجد الاتجاه العلمى لا يواصل مسيرته الجدية فلا نصبح مخترعين مثل غيرنا من الأمم المتقدمة ونجد الاتجاه التحريرى يضعفه ذوو السلطة والرياسات فى الإدارات والمصالح المختلفة . وتجد الاتجاه العقلانى كذلك يتوارى أمام هذه السلبيات . ويصبح تناقضا فكريا فى المواقف المختلفة . فمرة نحكم العقل الموضوعى ومرة أخرى نحكم العقل بلا موضوعية وبتعصب شديد . ويصبح الاتجاه التكاملى اتجاها نحو الحلول الوسط وأنصافها . . وهكذا حتى تسود حياتنا المتناقضات والصراعات الفكرية والاجتماعية فى مواقف الحياة المختلفة .

التناقض والصراع الفكرى :

وهكذا نرى حياتنا مليئة بشتى المتناقضات والصراعات . فنحن متدينون ونثور ثورة عارمة لمجرد المساس اللفظى بالدين وفى نفس الوقت لا نتبع تعاليم الدين فى كثير من أمور حياتنا .

ونحن نؤمن بأهمية الفرائض الدينية . ومع ذلك لا يزاولها الكثير منا ممن يؤمنون بها ، وبأهميتها فى تطهير النفوس وتزكية العقول . ونحن نؤمن بالحرية فى إبداء الرأى ، ومع ذلك نتبرم بها حينما نتولى منصبا رئاسيا فى إدارة من الإدارات . ونحن نؤمن بتحرر المرأة ولكننا ننظر إليها نظرة لا تتكافأ مع مكانتها الإنسانية ونطوقها بكثير من الأغلال والقيود . ونحن نؤمن بمبادئ العدالة والمساواة ، ولكننا كثيراً ما نتناقض معها ونبطش بها . . وهكذا

بالنسبة لكثير من القيم ندافع عنها نظريا ولفظيا وننطق بها واقعيا . ونحن نؤمن إيمانا قويا بالدين ، ولكننا فى حالات كثيرة وجدنا الحكام يبطشون ببعض رجاله ، كما يتندر بعض من فئات الشعب عليهم . ونحن نؤمن بالعلم ، وبأهميته فى تقدم الحياة الحضارية لمجتمعنا ، ومع ذلك فكثير من مسلكنا نحو العلماء والمخترعين يمثل عوامل طرد لهم . كما أن جديتنا فى تطبيق مكتشفاتنا هى دون قدرتنا على البحث العلمى والاكتشاف بكثير . وهذا يتسبب فى تخلف المسيرة الحضارية لشعبنا . ويجعلها عاجزة عن مواكبة عصرها .

وهذه التناقضات ، وتلك الصراعات نشاهدها فى واقع حياتنا فيما تبنته الأحزاب قبل الثورة سواء على المستوى العلنى أو على المستوى السرى . ونجدها أيضاً فى الصور المتناقضة لتقاليدنا ، وعاداتنا ، وقيمنا . حتى أننا نعجز حتى الآن أن نجد ملامح مشتركة بين أبناء هذا المجتمع فى كثير من العناصر المادية والفكرية .

ونجدها أيضا فى تلك الأنماط والأشكال التى تروع الملاحظ حينما يقف فى وسط حى شعبى ، وكأنما يشاهد حفلة تنكرية قد اصطحب فيها روادها أزياء من كثير من بلاد العالم ، ومن كثير من عصور التاريخ . تجد من تلبس « الميكروجيب » و« المنى جيب » ، و« الماكسى ، « والشوال » « والزكيبة » و « الملس ، « الخيمة » ومن يلبس البذلة ، ومن يلبس القبعة ، ومن يلبس الجلباب البلدى أو الأفرنجى . ومن يلبس « الحذاء » . . ومن يلبس « البلغة » . ومن يلبس « السروال » كرنفال عجيب ! !

دور التربية فى تذويب الصراع والتناقض الثقافى :

صعوبات أمام التربية :

لعل السبب الرئيسى الذى يجعل التربية مخفقة فى تذويب الصراع الثقافى ، والقضاء على متناقضات الثقافة المصرية أنها هى الأخرى تعكس مثل هذه الصراعات والمتناقضات ، مما يجعل المسيرة التربوية متلكئة فى مشيتها مثل المسيرة الاجتماعية تماما بتمام . ولم لا ؟ والتربية نظام مؤثر ، ومتأثر بالنظم الاجتماعية الأخرى فى المجتمع . ولم لا أيضا ؟ والإطار الثقافى الذى يضمها هو نفسه عاجز عن أن يرتق أوصاله . ومن هنا عكس التمزق الثقافى تمزقاً تربويا ، وعكس التناقض الثقافى تناقضاً تربويا ، وعكس الصراع الفكرى فى المجتمع صراعا فكريا فى داخل التربية نفسها . كما عكست الانفصالية بين النظرية والتطبيق

التى نلاحظها فى ثقافة مجتمعنا نفسها فى مدارسنا ، فنجد مدارس عملية ولا تتقن العلم النظرى مثل المدارس الفنية ، ومدارس نظرية تتقن العلم النظرى كتحصل دون العناية بتطبيقاته فى واقع الحياة . ومثلما نجد كرنفالا فى حى شعبى فإننا نجد مثيلا له فى داخل المدرسة الثانوية يتمثل فى عديد من الشهادات التى يحملها المدرسون . ويتمثل فى أشكال مختلفة من اللبس ذاته : (عمامة . . وقبعة . . رأس عارية . وبريه) ومينى وميكروجيب . وميدى ومكسى أيضا . . كل هذا فى داخل المدرسة . ويعكس كل هذا أساليب مختلفة لتناول المادة الدراسية .

وعلى ذلك فعلاج التربية فيه علاج المجتمع ، وعلاج المجتمع فيه علاج للتربية . وهذا يتطلب :

١ – وحدة الثقافة وتماسكها ، ووحدة المجتمع وتماسكه ، ووحدة الشخصية ، وتماسكها . ووحدة الثقافة تتحقق إذا ما استندت إلى نظرية فلسفية واضحة المعالم يفهمها كل الناس فى المجتمع : كل شخص يفهمها وفقاً لمستوى وعيه وتعليمه : وخير مثال على ذلك الفهم المتنوع لتلك الفلسفة التى احتواها القرآن الكريم ، والتى استطاع كل فرد أن يفهمها وأن يعيها ويعمل بها : وساعد على ذلك القدوة من الناس التى استوعبتها أكثر من غيرها وفهمتها وعملت وفقاً لها . فكانت بالنسبة للجماهير قيادية فكرية وعملية . وهذه الوحدة الثقافية وتماسك الإطار الفكرى الاجتماعى عليه أن يعكس وحدة ، وتماسكاً فى الإطار الفكرى التربوى ، بحيث تعمل التربية فى ظل فلسفة واضحة . وتحدد أهدافها بصورة واضحة أيضاً .

٢ – إن التربية تقوم فى صميمها على الاختيار والانتقاء الثقافى ، أى أنها تختار من بين القيم الموجودة فى المجتمع ، وتختار الخبرات المختلفة التى تنمى هذه القيم التى ترضى عنها فلسفةالمجتمع وفلسفة التربية على حد سواء ، والتى تنمى مهارات جديدة متطورة ، وعادات جديدة متكيفة ، ومعلومات عن حقائق التطور والتغير الاجتماعى فى الحاضر وفى المستقبل . وتضمن ذلك كله مناهجها وأساليبها وطرقها فى التدريس وما إلى ذلك .

٣ – ولكن يثار هنا تساؤل : هل تختار التربية وتنتقى من ثقافة المجتمع ما ينبغى أن يكون عليه التغير والتطور الاجتماعى ، تاركة ما فى الثقافة من صراعات وتناقضات وسلبيات ؟ الواقع أن التربية تناقش هذه المسائل كلها . . تناقش التناقضات والصراعات

والسلبيات وتناقش أسبابها ووسائل علاجها مع الناشئة حتى توقفهم عليها فيكونوا قوة لمقاومتها وصرعها .

إن التربية تعرض لوجهات النظر المختلفة حول القضايا الاجتماعية المختلفة و بمنطق موضوعى يستطيع الناشئة أن يميزوا بين غثها وثمينها على أساسه .

٤ – والتربية هى القوة التى تحول أى تصور فكرى للمستقبل (فلسفة اجتماعية) إلى واقع يعيشه المجتمع . وبالتالى فإن أى تصور للعناصر الثقافية المختلفة فى ظل هذا التصور الفكرى للمستقبل هو أساس العمل التربوى . فاللغة والمهارة ، والعادات ، والقيم كعناصر للثقافة تصاغ فى كل هذا الإطار وتعمل التربية على ترجمته إلى سلوك ينشأ عليه أجيال المجتمع المختلفة : الصغار والكبار على حد سواء .

٥ – كما أن التربية تقوم بعملية التنسيق بين عناصر الثقافة المختلفة ، وإيجاد صيغة للتفاعلات السوية بين هذه العناصر لدى أجيال المجتمع المختلفة . وهذا التنسيق يتضمن عمليات اختيار وانتقاء ، كما يتضمن حلولا لمشكلات تواجه عناصر الثقافة المختلفة فى تغيرها وتطورها ونموها . ومهمة الفلسفة الاجتماعية والتربوية أن يتم فى ضوئها هذا الانتقاء كما تتم الحلول للمشكلات . وبها يمكن إحداث التكيفات المختلفة التى تتطلبها التغيرات المختلفة . وفى إطارها تعالج النظم الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية . وتتحول إلى خبرات تشملها مناهج المدارس والجامعات المختلفة لينشأ عليها الأجيال الجديدة .

ولقد لوحظ أنه فى حالة تغـــير المجتمعات تحدث هزات عنيفة لعناصر الثقافة وتضطرب القيم وتتصارع الأفكار ، وتختل معايير ، وتتصارع عادات مع عادات واتجاهات مع اتجاهات ، واهتمامات مع اهتمامات . . ويجوب المجتمع ما يمكن أن نسميه « بالحرب الداخلية الاجتماعية » . وفى صحبة هذه القلاقل الثقافية تحدث قلاقل واضطرابات فى الإطار الفكرى العام ، أو ما يمكن أن نطلق عليه الإطار الفلسفى أو الفكرى أو النظرى . وما لم يستطع المجتمع أن يجمع قواه ، ويقوى على تحديد أهدافه ؛ فإن تلك الفلسفة تتمزق . وتتمزق معها بالتالى عناصر الثقافة . والعكس صحيح تماماً ، فإذا ما تمزقت عناصر الثقافة تمزق معها الإطار الفلسفى والاجتماعى للمجتمع . وبالتالى تمزقت معه الشخصية القومية والفردية وعاشت فى صراعات كثيرة :

٦ – وإذا كانت الثقافة تتغير وتنمو بفعل مواجهة المشكلات المختلفة والتفاعل معها ،

وإيجاد حلول لها فإنها أيضاً تقتبس من غيرها من ثقافات المجتمعات الأخرى التى واجهت مثل مشكلاتها قبل ذلك وأوجدت لها حلولا . والثقافات فى اقتباسها تكون أمام أمرين هما :

(ا) التمثل والهضم : وهذا جانب إيجابى للاقتباس . فى مثل هذه الحالة لا تقتبس الثقافة إلا ما يشعر أنها فى حاجة ماسة إليه . وأن يتمشى مع روحها ولا ينتقص من شأن عمومياتها أو خصوصياتها وإنما يرتقى بهما .

(ب) المراهقة فى الاقتباس : وهذا جانب سلبى فى الاقتباس . وفى مثل هذه الحالة تراهق الثقافة فى الاقتباس من غيرها متمثلا ذلك فى اقتباس الشكل دون الجوهر ، ودون معرفة حقيقية بهدف وغاية ما يقتبسونه . وإنما يكون ذلك انطلاقا من التقليد الأعمى غير الواعى ، ويحدث ذلك فى حالة شعور المجتمع باحتقار لثقافته ، انطلاقاً من الشعور بالنقص الذى يغرسه فيه الاستعمار مثلا فتحاول البلاد المحتلة أن تقلد البلاد المستعمرة .

ولكى تحقق التربية التمثل الواعى ، وأن تحقق كل هذه المهام عليها أن تتخذ من الوسائل الآتية منهجاً لها :

١ – أن تقوم بدراسة الثقافة وتحليلها إلى عناصر لكى تضع يدها على جوهر هذه الثقافة وتحررها من سلبياتها . إن هذه الدراسة تفيد فى الوقوف على العادات والتقاليد الراسخة من الماضى ومازال بعضها يعوق حركة التغير والتقدم ، وبعضها يعتبر ضوابط للسلوك بما تحفظه من قيم ومن أفكار وعادات .

٢ – ودراستنا لهذا الواقع الثقافى لا يجعلنا نقف عنده ، وإنما ندرس كيف نحركه نحو المستقبل . وكيف نواجه مشكلاته بدراسة علمية فى ظل تصور لمستقبلنا ، وما فيه من أهداف وتطلعات تحويها فلسفتنا الاجتماعية .

٣ – ومنهجنا فى هذه الدراسة ينبغى أن يبنى على العلم الاجتماعى وأساليبه . فقد ظلت دراستنا حتى الآن دراسة نظرية تعبر عن وجهة نظر شخص ، أو جهة أو هيئة حتى الآن . فجاءت مبتسرة لا تقوى على مجابهة هذا الواقع الثقافى ومشكلاته .